أصول التربية والتعليم وأثرها في بناء الشخصية واتزانها كما رسمها القرآن الكريم

د. أحمد بن أحمد بن شرشال.

أستاذ القرآن وعلومه بكلية الشريعة

-جامعة الكويت-

إن صلاح الإنسان لا يستقيم إلا إذا صلح تعليمه، لأن التعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يريده المعلم، ولا ينفع هذا التعليم إلا إذا رجعنا به إلى التعليم النبوي في شكله وموضوعه، وفي مادته وصورته، كما كان يتعلم النبيﷺ من جبريل وكما كان يعلم أصحابه -رضي الله عنهم- فقد صح عنهﷺ أنه قال: "إنما بعثت معلما".

وإن مناهج الدراسة ومقرراتها في الجامعات قد نأت عن هذا وتضمنت مواد جافة مجردة من الحوافز التي تدفع الطالب للعمل بما علم، ولا تعطي الثمار المرجوة منها، فهي أشبه بالصنعة التي يتعلمها أي إنسان آخر.

ثم إنها لم تكن واضحة المعالم عند الطالب، ولا هي عند الأستاذ الذي تصدر للتدريس، فلا تحدث في نفس الطالب انفعالا لهذه المادة أو تلك، ولا تولد في نفسه حرارة الإيمان، ولا تزوده بزاد التقوى، ولا تحدث في نفسه ذكرا، بخلاف ما إذا ربطنا صناعة التعليم ومناهجه بفعل النبيﷺ ومنهجه وطريقته.

وإذا أردنا أن نصحح اتجاه الأمة فلنبدأ بتصحيح المناهج التعليمية كما رسمها القرآن الكريم، فقد تضمن أصولا وقواعد غابت عن أذهان علماء التربية والتعليم.

ومن ثم كان من الواجب علينا قبل الإقدام على وضع نظم المناهج التعليمية أن نتلمس هدى النبيﷺ ومنهجه في التربية والتعليم.

إن صفة منهج النبيﷺ في التعليم، قد رسم القرآن معالمها الكبرى، واستقل ببيانها، وفصلتها السنة النبوية.

قال تعالى -في بيان صفة هذا المعلم ومنهجه- في سورة البقرة﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾[1]. وقد قال في سورة آل عمران:﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾[2].

فقد صرحت هذه الآيات بالمنهج العام لأصول التربية والتعليم الذي لا منهج سواه، والذي لا ينبغي أن يتغير أو يتبدل، وهو منهج أصيل يسعد الإنسان في دنياه وأخراه، لأن منزله هو الخالق لهذا الإنسان، العليم بطبيعة تكوينه، الخبير بدروب نفسه ومنحنياتها.

وقد جاء هذا المنهج مطابقا لدعوة إبراهيمعليه السلامحكى القرآن نص الدعوة فقال:﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[3].

ولقد حقق الله دعوة إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- ووافقت قدر الله السابق، ولذلك قالﷺ:"أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى بي"[4].

ولقد بين القرآن أن هذا المنهج وما تضمنه من مقررات لم يكن مقصورا على الموجودين مع النبيﷺ، بل هو صالح لكل من يأتي بعد النبيﷺ من العرب والعجم،

ولم يكن يومئذ قد ولد، فقال:﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾(5).

والمراد بالآخرين منهم لما يلحقوا بهم هم كل من يأتي بعد الصحابة -رضي الله عنهم- إلى يوم القيامة يتلوا عليهم ويتلوا على الآخرين ويعلمهم، ويعلم الآخرين الكتاب والحكمة، ويزكيهم ويزكي الآخرين.

قال القرطبي:"لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمن كان كله مسندا إلى أوله، فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه"(6).

فمنهج التربية والتعليم في القرآن موصول ومتواصل لا انقطاع فيه، ولذلك جاء عقب نص دعوة إبراهيم عليه السلام أن من لم يقبل هذا المنهج وانحرف عنه يعد سفيها، فقال ﷻ:﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾(7). أي امتهن نفسه واستخف بها وظلمها، وما أكثر السفهاء اليوم لتنكبهم عن هذا المنهج الرباني، ولن يكون أحد داخلا في دعوة إبراهيم وإسماعيل حتى يمتثل ويقبل هذا التعليم الجامع بكامل مفرداته ومقرراته، لأن القرآن سماه سفيها.

إن الإنسان مهما كان مقامه عاليا ومنصبه ساميا لا يستغني عن التعليم، فهذا نبي الله داود عليه السلام مع حصوله على الملك والنبوة لم يستغن عن تعليم الله إياه قال تعالى: ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾(8).

وهذا موسى يلتمس من العبد الصالح أن يرافقه ليتعلم الرشد، قال تعالى:﴿ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾[9].

وكان ﷺ لا يعرف هذا الكتاب المنزل، ولم يكن يتلو أي كتاب قبله، ولم يكن يعرف الكتابة.

قال تعالى:﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾[10].وقال:﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾[11].

وكان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداﷺ لا يقرأ ولا يكتب، قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾[12].

وقد علمه الله ما لم يعلم، وأنزل عليه الكتاب، قال تعالى:﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾[13].

وطلب منه المزيد:﴿ وقل رب زدني علما﴾[14].

وذكر بعض المفسرين أنه ﷺ ما أمر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم، وكان يقول:"اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما"، وكان يستعيذ من العلم الذي لا ينفع، وقد تضمن هذا المنهج أصول التعليم:التلاوة، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، ثم التزكية، فهو منهج متكامل لكل ما يصلح الفرد والمجتمع من

جميع الجوانب، ولا يحتاج إلى ما يكمله، وقد جاء ترتيبه في أسمى درجات البلاغة والحكمة، لأن أول تبليغه يكون بتلاوة القرآن، ثم بيان معانية ثم تعليم الحكمة وبها تحصل التزكية.

ونلاحظ أن جميع الآيات بدأت بذكر الأصل الأول وهو التلاوة، لأنها هي مفتاح كنوز القرآن، ولا عجب في ذلك، إذ كانت أول آية نزلت تأمره ﷺ بالقراءة، قال ﷻ: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾[15].

أولا: نبدأ بالمعلم الأول بما بدأ الله به في جميع الآيات التي تقدمت، وهي تلاوة القرآن، ومعناها القراءة المتتابعة المرتلة التي يكون بعضها تلو بعض، وأول صفات هذا المعلم: يتلو عليهم آياتك، أي يقرأ عليهم القرآن، وأصلها من الاتباع، ومنه قولهم: تلاوة إذا تبعه، وهي ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام تأليف القرآن وترتيبه، ومنه قوله تعالى:﴿ والقمر إذا تلاها﴾[16].

وقد أمر هذا المعلم ﷺ أن يتلو القرآن على أصحابه كما قال تعالى:﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن﴾[17]، وقال:﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله﴾[18].

فكان ﷺ يعلم الصحابة القرآن كما جاء ذلك في قولهم:﴿ كان يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن﴾[19].

وجيء بالمضارع في قوله:(يتلو) للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته، ولهذا جاء في وصف هذا القرآن:﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم﴾[20].

من صفات هذا الكتاب أنه يثنى ويكرر، فقوله (مثاني) بمعنى التكرار والإعادة، وقد كرر الله الأمر بالقراءة في سورة العلق، فتثنى وتكرر قراءته وأحكامه وحكمه وأخباره، والمراد بالآيات -جمع آية- وهي في اللغة العامة آيات القرآن الكريم، فكان ﷺ يتلوها ليحفظوا ألفاظها كما نزلت، ويتعبدوا الله بتلاوتها.

وبعد أن أمره الله بالقراءة والتلاوة بين له صفة التلاوة، فعناية الله لنبيﷺ لم تنقطع، بل قد رسم القرآن لنبيه كيفية القراءة، فقال:﴿ فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل رب زدني علما﴾[21].

وقال في بيان كيفية التلاوة:﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرءانه فإذا قرأناه فاتبع قرءانه ثم إن علينا بيانه﴾[22].

وقال:﴿ سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله﴾[23].

المعلم الأول للنبيﷺ هو جبريل، كما بينه القرآن، فقال:﴿ إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى﴾[24].

فقد كانﷺ يبادر إلى أخذ الوحي، ويسابق الملك في قراءته قبل أن ينتهي جبريل المعلم، فأمره اللهﷻ إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع وينصت حتى ينتهي جبريل من القراءة، فإذا انتهى أمره أن يتابع القراءة بالكيفية التي قرأ بها جبريل المعلم، ولذلك أقرأ أصحابهﷺ بهذه الكيفية وأمرهم أن يقرأوا بها فقال:" إقرأو كما علمتهم"[25]، قال الحافظ ابن كثير:كان إذا جاءه جبريل بالوحي كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن فأرشده -الله تعالى- إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه[26].

فبين القرآن له كيفية التلقي فقال:﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾[27]. أي فإذا قرأه جبريل عليك وانتهى فاتبع قراءته، فالقرآن هنا مصدر بمعنى القراءة، ثم نهاه عن السرعة والعجلة في التلاوة، فقال:﴿ فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما﴾[28]. بل أنصت واستمع، فإذا فرغ جبريل المعلم من قراءته عليك، فاقرأ بعده.

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال:"كان رسول اللهﷺ إذا نزل عليه الوحي يلقى منه شدة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه يتلقى أوله، ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل يفرغ من آخره، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ مخافة أن ينساه.

فيجب في طلب العلم التأني والتثبت في تلقي العلم، وألا يحمله الحرص على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، فأمره الله بترك الاستعجال في تلاوة القرآن حتى ينتهي جبريل، ثم يقرأ بعد فراغه عليه[29].

وقد وعد الله وطمأنه وأخبره بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها فقال:﴿ سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى﴾[30].

ثم بين له القرآن أدب التلقي فقال:﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[31].

ومادة (تلقى) من اللقيا، فيها لقاء بين اثنين هما المتلقي بكسر القاف، والمتلقي منه بفتح القاف، والمتلقي هنا هو الرسولﷺ، والمتلقي منه هو الله تعالى[32]. ولكن الواسطة جبريل المعلم، لأن الله قال:﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء﴾[33].

وقال تعالى في بيان هذا المعلم: ﴿إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى﴾[34].

هكذا علمه الله كيف يتلقى الوحي:﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما﴾[35].

ثم بعد ذلك لك يكله إلى نفسه وحفظه، بل أرسل إليه المعلم جبريل يعارضه القرآن ويدارسه في كل ليلة من رمضان، وليس معنى ذلك أيضا أن يتخلى عنه طيلة

أشهر السنة إلا في رمضان، بل كان يتزل عليه في كل الأحوال كما قال تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾(36).

ولذلك نزل عليه القرآن في الحضر والسفر والليل والنهار...الخ.

وإنما المدارسة والعرض والسماع كان في رمضان من كل عام، وفي العام الذي قبض فيه عارضه بالقرآن مرتين.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس، قال:"كان رسول الله ﷺ أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة"(37).

وفي حديث فاطمة عند البخاري في فضائل القرآن. قال رسول الله ﷺ:"إن جبريل يعارضني بالقرآن في كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين". ومعنى هذا أن جبريل يعرض القرآن، والنبي ﷺ يسمع ومن ثم أمر بالإنصات والاستماع كما تقدم، ثم إن النبي ﷺ أجود بالخير، وأجود ما يكون في رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن.

هذه هي طريقة النبي ﷺ في تلقي القرآن، وتسمى: (العرض والسماع).

فعلينا أن نقتدي به وبفعله في قراءة القرآن، وقد وجه الله عباده إلى هذا الأدب بالاستماع والإنصات فقال:﴿ وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾(38).

وبين لهم شروط الانتفاع بالقرآن فقال:﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[39].

فيحصل الانتفاع بالقرآن لمن كان له قلب حي يعقل الكلام ويتدبره، ولمن وجه سمعه، وأصغى إلى ما يقال له، وهو حاضر القلب غير غائب، قال ابن قتيبة:"استمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه[40]. قال الراغب:"وكل موضع أثبت فيه الله السمع للمؤمنين أو نفاه عن الكافرين أو حث على تحريه، فالقصد به إلى تصور المعني والتفكير فيه[41].

قال سفيان بن عيينة:"أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر"[42].

ومن منهج النبي ﷺوطريقته في التلاوة أنه كان يرتل القرآن ترتيلا امتثالا لأمر الله:﴿ ورتل القرآن ترتيلا﴾[43]. بعد أن نهاه عن العجلة أمره بترتيل القرآن كما أنزله الله مرتلا، وأمره أ، يقرأه على الناس مرتلا، فالترتيل أمر ملحوظ في النزول كالقراءة نفسها، وقد بين ذلك القرآن نفسه فقال:﴿ وقرآنا فرقناه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا﴾[44]. أي ترسل في تلاوته، وأحسن تأليف حروفه بالتأني في قراءته وتبين حروفه وحركاته ليكون ذلك عونا على فهم القرآن وتدبره، كما سيأتي، وأثر عن علي ﷺ أنه قال: "الترتيل هو تجويد الحروف ومعرفة الوقوف"[45].

وقد امتثل النبي ﷺ لهذا الأمر، وقد كانت قراءته ﷺ ترتيلا، فعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت:"كان ﷺ يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها" (46).

وعن أم سلمة -رضي الله عنها- أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ:"فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا"(47).

ومنها ما رواه البخاري في صحيحه، باب مد القراءة يصف قراءة النبي ﷺفعن قتادة قال:سألت أنس بن مالك ﷺ عن قراءة النبي ﷺفقال:"كان يمد صوته مدا".

ومن ذلك ما رواه البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أنه سئل: كيف كانت عن قراءة النبي ﷺ فقال:كانت مدا. ثم قرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد (بسم الله) ويمد بـ (الرحمن) ويمد بـ (الرحيم).

وقد أخذ عنه صفة التلاوة وكيفيتها أصحابه، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ كان يقرئ رجلا، فقرأ الرجل:﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ (48). مرسلة، فقال ابن مسعود:"ما هكذا أقرأنيها النبيﷺ فقال الرجل:"وكيف أقرأكها يا أبا عبد الرحمن؟ قال: أقرأنيها:"إنما الصدقات للفقراء والمساكين" (فمدها) (49).

فهذا عبد الله بن مسعود الذي هو أشبه الناس سمتا برسول الله ﷺ أنكر على الرجل أن يقرأ كلمة (الفقراء) من غير مد، وبين للرجل صفة أن النبيﷺ ما قرأ بهذه الصفة التي قرأ بها الرجل، وبين عبد الله بن مسعود للرجل صفة قراءة النبيﷺ للكلمة ومدها، ولم يقره على ترك المد مع أن فعله وتركه سواء في عدم التأثير على

دلالة الكلمة ومعناها، فدل على أن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول كما قال زيد بن ثابت.

وقد أمر النبي ﷺ أصحابه أن يقرأوا كما علمهم. أخرج ابن جرير الطبري عن عبد الله بن مسعود. قال: قال علي ﷺ:"إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرأوا كما علمتم"(50).

فهذه النصوص المتوافرة في صفة قراءته النبيﷺ دلت على أن قراءة القرآن بالكيفية التي قرأ بها النبي ﷺ توقيفيه، فلا يجوز العدول عنها ولا الإخلال بها.

وإذا انتقلنا إلى باب الوقف والابتداء في قراءة النبي ﷺ نجد نصوصا صريحة تبين عناية النبي ﷺ بالوقف واختياره لمواضع يحسن الوقف عليها والابتداء، بما بعدها، وقد تعلم ذلك من جبريل المعلم.

وقد وصفت أم سلمة -رضي الله عنها- عناية النبي ﷺ بالوصل والوقف علميا وعمليا.

روى عنها أنها سئلت عن قراءة النبي ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا، وقالت: كان يقطع قراءته يقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم يقف (الرحمن الرحيم) ثم يقف، وكان يقرأ: (مالك يوم الدين)، وفي لفظ لأبي داود:"كان يقطع قراءته آية آية"(51).

وفي لفظ هذه الصفة وهذه الكيفية في تلاوة القرآن الصحابة -رضي الله عنهم- يذكر ميمون بن مهران عن الصحابة أنهم كانوا يراعون في الوصل والوقف تمام المعنى فقال:(إني لأقشعر من قراءة أقوام يرى أحدهم حتما عليه ألا يقصر عن العشر

إنما كانت القراءة تقرأ القصص إن طالت أو قصرت). وقال عبد الله بن أبي الهذيل: "إذا قرأ أحدهم الآية فلا يقطعها حتى يتمها"[52].

هذا هو معنى المقرر الأول في أصول التربية والتعليم كما رسمه القرآن في قوله: ﴿ يتلا عليهم آياته ﴾[53].وهذا هو منهج النبي ﷺ في صفة التلاوة وكيفيتها، فعلينا أن نقتدي به وبفعله ﷺ.

الأصل الثاني من أصول التربية والتعليم الذي تضمنه هذا المنهج:

تعليم الكتاب، وهو المنصوص عليه في قوله تعالى:﴿ ويعلمهم الكتاب﴾[54]. عطفا على قوله:﴿ يتلو عليهم آياته ﴾[55]، عطف جملة على جملة.

ومما لاشك فيه و لا خلاف عند المسلمين أن القرآن الكريم تضمن علوما ومعارف يعجز البشر عن الإتيان بها، وتضمن حكما وأحكاما وأسرارا بها يحقق الإنسان سعادته في الدنيا والآخرة، ولا سبيل إلى معرفة هذه العلوم وهذا التشويع، وهذه الهدايات والوقوف عليها والعمل بها إلا بفهم القرآن وتفسيره وتدبره، لأن ملكة الفهم دخلها الفساد، فصار الناس لا يفهمون القرآن ولا يفقهون ما فيه، وبدون فهم القرآن وتفسيره لا يمكن الوصول إلى كنوزه مهما رددنا تلاوته وأقمنا حروفه.

قال الحافظ السيوطي:"ونحن محتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر، لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم، فنحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير"[56].

فقد كان الصحابة -رضي الله عنهم- يحتاجون إلى تفسير النبي ﷺ كما أثر عنه أنه فسر لهم قوله ﷻ: ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[57].

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "لما نزلت هذه الآية قال الصحابة: و أينا لم يظلم نفسه؟ وشق ذلك عليهم فقال ﷺ: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: "إن الشرك لظلم عظيم"، (إنما هو الشرك)[58].

من صفات هذا المعلم، أنه يتلو عليهم القرآن، ويعلمهم معاني الكتاب وما خفي وأشكل عليهم، فكان الصحابة -رضي الله عنهم- يرجعون إليه عند الحاجة.

وتعليم الكتاب يكون ببيان ما خفي من معانيه وحقائقه، وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب وأخلاق. وبالجملة: هو بيان المقاصد التي من أجلها نزل القرآن. وتعليم الكتاب غير تلاوته، لأن تلاوته تكون بقصد حفظ الألفاظ، وتعليم الكتاب يكون بقصد حفظ المعاني والأحكام والحكم التي استمل عليها وفهمها.

وهو تفسير القرآن، ومن مهمة الرسول ﷺ ووظيفته البلاغ والبيان، وكل منهما يتضمن الآخر، قال تعالى: ﴿ بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾[59]، وقال: ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[60]، وهذا يتضمن بلاغ المعنى، وأنه في أعلى درجات البيان.

قال ابن تيمية:"إن الصحابة -رضي الله عنهم- نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة"، وقال:"وأخذوا عن الرسول لفظ القرآن ومعناه"[61].

فالرسول المعلم ﷺ بين لأصحابه القرآن لفظه ومعناه، فبلغهم معانيه كما بلغهم ألفاظه، ولا يحصل البيان والبلاغ المقصود إلا ببيان لفظه ومعناه، فنقل معاني القرآن عنه ﷺ كنقل ألفاظه سواء.

وعلى هذه الطريقة سار الصحابة -رضي الله عنهم- قال ابن القيم:"ولم يكن للصحابة كتاب يدرسونه وكلام محفوظ يتفقهون فيه إلا القرآن، وما سمعوه من نبيهم، ولم يكونوا إذا جلسوا يتذاكرون في غير ذلك"[62].

وهكذا تلقى السلف الصالح هذا القرآن لفظا ومعنى، إحكاما للفظ وإتقانا للمعنى، وكانوا ينكرون على من انصرف عن فهم القرآن. روى ابن جرير الطبري عن سعيد بن جبير قال:"من قرأ القرآن ثم لم يفسره كان كالأعمى". وفي بعض الروايات:"كالأعرابي يهذ الشعر هذا"[63].

وذكر الحافظ ابن كثير وابن القيم:أن عدم فهم القرآن والتفقه فيه وتدبره نوع من أنواع هجر القرآن[64]، فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية، بل نزل من أجل هذا، ومن أجل ما هو أعم وأكمل، وهو فهم معانيه والتذكر بما فيه، والعمل به.

إن تلاوة القرآن تعني شيئا آخر غير المرور بكلمات بصوت أو بغير صوت، إنها تعني تلاوته بفهم وتدبر ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك.

وأقول: إن انفصال المواد الدراسية على إطلاقه ليس من طبيعة هذا الدين، ولا من شأن عمل السلف الصالح، فإنهم كانوا يأخذون بالقرآن الكريم. والذي يحقق هذه الغاية هو تفسير القرآن والتفقه فيه دون سواه، فهو وحده الكفيل بتحقيق شمولية التربية والتعليم من جميع النواحي، فيجب علينا أن نستغني بمعاني القرآن وأحكامه وحكمه عن غيره من كلام الناس.

وهذا الفضيل بن عياض يصحح للطلاب توجههم في طلب العلم، فقد ذكر الإمام القرطبي أن الفضيل بن عياض قال لقوم قصدوه ليأخذوا عنه العلم:"لو طلبتم كتاب الله لوجدتم فيه شفاء لما تريدون". فقالوا: فقد تعلمنا القرآن، فقال:"إن في تعلمكم القرآن شغلا لأعماركم وأعمار أولادكم".

فقالوا: كيف يا أبا علي؟ قال:"لن تعلموا القرآن حتى تعرفوا إعرابه، ومحكمه، ومحكمه، ومتشابهه، وناسخه من منسوخه، فإذا عرفتم ذلك استغنيتم عن كلام فضيل وابن عيينه"[65]، والمراد بالإعراب في كلام الفضيل البيان والتفسير.

إذن: كيف نستغني عن كتب الناس وعن مادة الفقه والحديث والعقيدة، كما نص غير واحد من العلماء؟. الأمر في غاية السهولة.

أقول: لا نستغني عن ذلك لأن جميع علوم الشرع قد استقل ببيانها القرآن، وقد أدرك هذا المعنى الإمام القرطبي -رحمه الله- فقال في مقدمته:"فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع... رأيت ن أشتغل به مدى عمري، وإستفرغ فيه قوتي"[66].

ومن أهم العلوم التي يتعلمها في تفسير القرآن هو علم التوحيد، وقد أخذ حيزا كبيرا من كتاب الله تعالى قال ابن القيم:"وغالب سور القرن متضمنة لأنواع

التوحيد، بل كل سورة في القرآن، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادة الله وحده، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته".

وقال حافظ الحكمي:"والقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير هذين التوحيدين"[67].

وقال ابن أبي العز شارح متن الطحاوي:"فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"[68].

وإذا كان القرآن كله في تقرير التوحيد بأصنافه، وأنواعه، وإكرام الله لأهله وبيان خطر الشرك وذم أهله، فإن تفسير القرآن والتفقه فيه هو الذي يغطي هذا المجال الواسع، وبغير التفسير يبقى المجال ناقصا، فالذي يأخذ أحكام العقيدة من القرآن بانتقاء وفصل كل ما يتعلق بالتوحيد لا يستطيع ذلك، وإذا اقتصر على بعض منها، فهذا فيه قصور ونقص، لأنه لم يستوعب كل الآيات، بل إن هناك بعض الآيات متعلقة ببعض الأحكام وفي ضمنها ما يتعلق بالعقيدة، فثبت أن فهم القرآن والتفقه فيه أكمل وأجمع لجميع العلوم.

ومن العلوم التي يتعلمها الطالب في تفسير القرآن الحديث النبوي الشريف، فإنه المبين لمراد الله من الآية، ويشهد بما شهد به القرآن. قال الواحدي:"لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها"، وقال ابن دقيق العيد:"بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن"[69].

قال ابن حزم في كتاب الأحكام وهو يتحدث عن السلف الصالح كيف كانوا يتعلمون الدين:"كان أهل القرون الفاضلة المحمودة يطلبون حديث النبيﷺ والفقه في القرآن الكريم"[70].

ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الأحاديث النبوية التي تبين معنى اية، فالأحاديث الصحيحة المروية في أسباب نزول القرآن وبيان المراد منه، تشهد باتفاق القرآن والحديث، فهذه الأحاديث تقرر نصوص القرآن وتكشف معانيها كشفا مفصلا، وتقرب المراد وتدفع عن الآيات الاحتمالات، وتفسر المجمل منه وتبينه وتوضحه، وخير من يمثل هذا الاتجاه في ذكر الأحاديث بعد الآيات من المفسرين الحافظ ابن كثير في تفسيره، بل التفسير الصحيح المقدم على غيره هو ما صح عن النبيﷺ وحينئذ فإن الحديث يندرج في علم التفسير لحاجته إلى البيان.

ومما يتعلمه الطالب في علم التفسير علم الفقه، وإني أرى عرض مادة الفقه بالطريقة المستقلة عن القرآن، لا تؤدي الغرض المطلوب، حيث يؤدي أستاذ المادة عرضه بذكر المسألة والتعريف بها، ثم بأقوال العلماء فيها، ثم بإيراد الدليل من القرآن أو السنة أو هما معا، فيقول: دليل هذه المسألة كذا، ودليل هذا القول كذا، ودليل تلك كذا، ويسرد الدليل، هذا إذا كان يذكر الدليل وهو أحسن أحواله.

والطالب هنا لا يعرف القرآن إلا دليلا، ولا يفهم معنى هذا الدليل، وقد كنا نعاني الشيء الكثير من ذلك عندما كنا طلابا حتى إننا لم نستطيع إيجاد علاقة بين الدليل والمدلول عليه لجهلنا بمعنى الدليل وهو الآية القرآنية.

فالطالب يحتاج إلى استخراج هذه العقيدة وهذا الفقه من هذه الآية، وهذا الدليل ببيانها وشرحها، وأسباب نزولها، وإفهام العلماء فيها واستنباط الفقه منها،

وحينئذ يؤول الفقه والعقيدة بهذه الطريقة إلى تفسير وفهم للقرآن وربط الطالب به. هذه هي الطريقة المثلى التي أراها تحقق الغاية المرجوة -إن شاء الله-.

وقد أثر عن بعض المفسرين القول بأن قوله تعالى:﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾، يعني الكتابة، مصدر كتب كتابا وكتابة، فذكر القرطبي عن ابن عباس:(الكتاب) الخط بالقلم، لأن الخط فشا في العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط[71].

والتفسير الأول -أعني يعلمهم معاني القرآن- هو المشهور في تفسير هذه الآية وعليه الجمهور، بل إن جل المفسرين لم يذكروا إلا القول الأول، ولا يعني ذلك التهوين من شأن الكتابة والخط، فلقد نوه الله بشأن الخط والكتابة فقال:﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[72]، التعليم بالقلم كالتعليم الذهني، نعمة عظيمة على عباده، إذ به تخلد العلوم، ويصل الخلف بالسلف، وتضبط الأحكام والعلوم والمعارف[73].

وكان له ﷺ كتاب يكتبون بين يديه الوحي، وقد أخبر تعالى عن فضله ورحمته أن علم الإنسان البيانين: البيان النطقي، والبيان الخطي.

قال القرطبي:"القلم نعمة من الله، عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه -سبحانه وتعالى- بأن علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، نبه على فضائل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها هو، وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقلت أمور الدين والدنيا[74].

الأصل الثالث من هذا المنهج- تعليم الحكمة:

أي أن من صفات هذا المعلم أنه يعلمهم الكتاب، ويعلمهم الحكمة، وقد بين القرآن أن الله أنزلها وأنها تتلى فقال:﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾(75).وقل:﴿ واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾(76).وقال:﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾(77).

ففي هذه الآيات بيان لهذا المعلم، وأنه يعلمهم الكتاب ويعلمهم الحكمة، وأن الله أنزل عليه الحكمة كما أنزل عليه القرآن وهي السنة كما قال غير واحد من السلف، فنوع المتلو إلى نوعين: آيات وهي القرآن، وحكمة وهي السنة، وبها تتبين مقاصد الكتاب وأسراره وحكمه وأحكامه.

وقد تطلق الحكمة على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهي العمل بما جاء في القرآن أمرا ونهيا كما جاء في القرآن أمرا ونهيا كما جاء ذلك في قوله تعالى:﴿ ذلك مما أوحي إليك ربك من الحكمة ﴾(78).واسم الإشارة يعود إلى ما تقدم ذكره من التكاليف الشرعية التي لا يتطرق إليها النسخ، والتي تبلغ خمسة وعشرين تكليفا بدءا من قوله تعالى:﴿ لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا ﴾(79). وختمها بقوله:﴿ ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا ﴾(80).

وفسرها الحافظ ابن كثير بالسنة وعزا ذلك إلى غير واحد من السلف، وهو ما أخذ عن الرسول ﷺ سوى القرآن:"إني أوتيت القرآن ومثله معه"، ومصداق ذلك في كتابه الكريم:﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ﴾[81].

ونزع ابن عباس في تفسيره للحكمة إلى المعرفة بالقرآن وفقه ما فيه من العلوم، وهو من أوسع التفسيرات فيما أعلم.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله:﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾[82]. قال:"المعرفة بالقرآن ناسخة ومنسوخة، ومحكمة ومتشابهة، ومقدمه ومؤخره، وحلله وحرامه، وأمثاله". وفي رواية عنه:"التفسير والتفقه في القرآن"[83].

وتعني من بين ما تعنيه الفقه والفهم في القرآن، ويدل له قوله:﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾[84]. وقوله:﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾[85]. قال مجاهد في هذه الآية: "يعني الفهم والعقل والفطنة"[86]، وقد خص الله سليمان بالفهم فقال: ﴿ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما ﴾[87].

وكل ذلك لا ينافي من فسر الحكمة بالسنة، لأن بها يحصل العلم، فهي المفسرة والمبينة للقرآن الكريم، فالأحاديث الصحيحة تقرر نصوص القرآن، وتكشف معانيها كشفا مفصلا، وتقرب المراد، وتدفع عن الآيات الاحتمالات، وتفسر المجمل منه وتبينه وتوضحه، وبكل هذا يحصل الفهم والفقه.

قال القرطبي:"فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه"[88]، ومن ثم اشتركت الحكمة في نسق تعليم الكتاب:﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾[89]، فتلاوة للآيات، وتعليم للكتاب، وتعليم للسنة.

الأصل الرابع: مما تضمنه هذا المنهج- التزكية:

ومن صفات هذا المعلم ﷺ أنه:﴿ يتلو عليهم آياته ويزكيهم ﴾[90]، تلاوة للآيات وتعليم للكتاب والحكمة، وتزكية بمعنى التطهير والتنقية من السوء والقبائح والمنكرات، وهي ثمرة لتطبيق المنهج السابق، وهي ثمرة لتلاوة القرآن، وثمرة لفقه القرآن والتفقه فيه، وثمرة لفهم السنة، وهي العمل بما علم من التلاوة والكتاب والسنة.

التزكية: تطهير الإنسان ظاهرا وباطنا من دنس الذنوب والمعاصي والآثام، ومن أعظمها التطهير من أرجاس الشرك، وهي العمل بالعلم، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي. قال تعالى:﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾[91]، وقال ﷻ:﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[92].

فقد فاز بكل مرغوب وظفر بكل محبوب من زكى نفسه وهذبها ونماها بالعلم، وزكاها بالتلاوة وفقه القرآن والسنة والعمل بذلك، ومادة التفعل للتكلف وبذل الجهد، أي بذل جهده في تطهير نفسه بالأعمال الصالحة[93].

وهكذا كان ﷺ يزكي أصحابه، فيتلقون منه خمس آيات أو عشر آيات ويتعلمون منه صفة أدائها وقراءتها، ويتعلمون ما فيها من العلم والعمل به.

قال أبو عبد الرحمن السلمي أحد أكابر التابعين الذين أخذوا القرآن ومعانيه عن مثل عبد الله بن مسعود وعثمان بن عفان وتلك الطبقة:"حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا القرآن والعمل[94].

فكانوا لا يجاوزوهن حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، فقد روى الطبري عن عبد الله بن مسعود قال:"كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[95].

فالعمل بالقرآن هو الذي يحقق التزكية. قال تعالى:﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه ﴾[96]، روي ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال:"والله ما تدبره من حفظ حروفه وأضاع حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، ولا يرى للقرآن عليه في خلق ولا عمل[97].

وقد أثر عن بعض السلف في معنى:﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾[98]. يتبعون القرآن ويعملون به. قال عبد الله بن مسعود:"والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله"[99].

ولذلك لما سئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

قال الحافظ بن كثير مبينا هذا الخلق:"ومعنى هذا أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقا تطبعه وترك طبعه الجبلي فمهما مره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه[100].

ولما بين الله هذا المنهج ورسمه في كتابه، وبين أن من صفات هذا المعلم الذي بعث في الأميين أنه يزكيهم ويطهرهم من أدران الشرك والذنوب والآثام عقب على ذلك بمثال من يحفظ هذا المنهج ولا يعمل به لا يحصل له التطهير والتزكية فقال:﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[101].

وكل من علم ولم يعلم بعلمه، فهذا مثله، وهذه صفته، وهذه حاله، وبئس المثل. وكل من رغب عن هذا المنهج بطريقته التي بيناها سفيها، ولذلك عقب على ذكره بقوله:﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾[102].

ومن معاني الملة اللغوية: الطريقة.

هذا هو المنهج التعليمي كما رسمه القرآن الكريم وبينته السنة لبناء الإنسان المستقيم ذي الشخصية المتزنة المعتدلة، وكل منهج مخالف لما سطره القرآن يعد شذوذا عن الجادة يؤدي إلى انحراف في السلوك.

وأخيرا أقول: فليزن طلاب علم هذا الزمن تعليمهم بهذا المنهج الذي رسمه القرآن الكريم ولينظروا أين مكانهم من فهم القرآن، وما هو حظهم من هدايته.

أثر التفسير في بناء الشخصية واتزانها:

ولما كان التأثير يتم بمقدار عظمة المؤثر، ظهر تأثير تفسير القرآن في بناء الإنسان وشخصيته قويا وكاملا ويصعب علينا حصر جميع جوانب التأثير في بناء شخصية الإنسان واتزانها واعتدالها، وسأقتصر على بعض الجوانب.

وأقول: إن الاشتغال بفهم القرآن وتفسيره والتفقه فيه يرقق إحساس الطالب ويقوي شعوره، وينمي فيه حب الآخرين، بحيث يجعله يتألم لألمهم ويفرح لفرحهم، ويسعد لسعادتهم.

ومن مبتكرات القرآن في التعبير عن هذا الإحساس، أن جعل القرآن قتل الرجل لغيره قتلا لنفسه، وجعل إخراج الرجل من داره إخراجا لنفسه، وجعل ظن السوء بالغير ظنا بنفسه، وجعل لمز الغير لمزا لنفسه، وجعل السلام على الغير سلاما على نفسه، وكل ذلك أراده القرآن في تعبيراته.

قال تعالى في سياق أخبار بني إسرائيل:﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾[103]، فجعل دم كل فرد من أفرادهم كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر ذاته.

قال القرطبي:"ولما كانت ملتهم واحدة، وأمرهم واحد، وكانوا كالشخص الواحد جعل قتل بعضهم بعضا، وإخراج بعضهم بعضا قتلا لأنفسهم ونفيا لها"[104].

قال الشيخ بن عاشور:"ليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره، لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبيعي... وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره، ولا يخرج غيره من داره"[105].

ومثل هذا السياق قوله تعالى:﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾[106]، ومعناه: فليقتل بعضكم بعضا بأن يقتل من لم يعبد العجل عابديه، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه.

قال القرطبي:"وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده"، ثم نقل عن الزهري قوله: "أن يقتل من لم يعبد العجل من عبد العجل"[107].

وقال الله في سياق هذه الأمة:﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾[108]. أي لا يقتل بعضكم بعضا، فجعل قتل الرجل لغيره قتلا لنفسه، قال القرطبي:"أجمع أهل التأويل على أن المراد بهذه الآية النهي أن يقتل بعض الناس بعضا، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه"[109].

قال الحافظ بن كثير:"وهو الأشبه بالصواب" [110]، قال الزمخشوي:"شبه الغير بالنفس لشدة اتصال الغير بالنفس في الأصل أو الدين، فإذا قتل المتصل به نسبا أو دينا فكأنما قتل نفسه"[111].

وقال الحافظ بن كثير:"إن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة"[112]، وقد بين الله أن من قتل نفسا بغير حق، فكأنما قتل الناس جميعا، فقال:﴿ كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾[113].

ومن تعبيرات القرآن بالنفس، وإرادة الأخ في الدين قوله تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[114].

نقل الفخر الرازي عن عبد الله بن المبارك أنه قال:"هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه سبحانه قال:﴿ عليكم أنفسكم ﴾، يعني عليكم أهل دينكم ولا يضركم من ضل من الكفار، بأن يعظ بعضكم بعضا، ويرغب بعضكم بعضا في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات[115]، لأن المؤمنين اخوة في الدين.

ومن تعبيرات القرآن بالتفسير وإرادة الغير، قال تعالى:﴿ فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾[116].

والمعني: فليسلم بعضكم على بعض، وهم أهل البيوت التي يدخلونها لأنهم بمنزلة أنفسهم في شدة المحبة والمودة والألفة، ولأنهم منكم في الدين، فكأنكم حين تسلمون عليهم تسلمون على أنفسكم، وقد أنكر الشيخ ابن عاشور على من فهم من الآية أن الداخل يسلم على نفسه وقال:"ولقد عكف قوم على ظاهر هذا اللفظ، وأهملوا دقيقته فظنوا أن الداخل يسلم على نفسه إذا لم يجد أحدا، وهذا بعيد عن أغراض التكليف والآداب"[117].

أقول:وهو المأثور عن سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري، حيث قالوا: فليسلم بعضكم على بعض[118].

ومن تعبيرات القرآن بالنفس وإرادة الأخ في الدين، قوله تعالى:﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾[119]، والإنسان لا يلمز ولا يعيب نفسه، وإنما اللامز غيره إشارة إلى من عاب أخاه المسلم فكأنما عاب نفسه، فنزل البعض الملموز منزلة نفس الإنسان لتقرير معنى الإحساس بالأخوة وتقوية الشعور بها، ومن تعبيرات القرآن عن الغير بالنفس قوله تعالى:﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ﴾[120].

المراد بأنفسهم هنا، إخوانهم في الدين والعقيدة، فهلا وقت أن سمعتم حديث الإفك هذا ظننتم بأنفسكم أي بإخوانكم ظنا حسنا جميلا، إذ لا يظن المرء بنفسه السوء، وفي هذا التعبير عن إخوانهم وأخواتهم في العقيدة بأنفسهم أسمى ألوان الدعوة إلى غرس روح المحبة والمودة والإخاء والإحساس الصادق، حتى لكأن الذي يظن السوء بغيره إنما يظنه بنفسه[121].

قال الفخر الرازي:"فيجعل الله المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الأمور، فإذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم"[122].

فهذا الأسلوب القرآني، وهذا الخطاب الرباني يؤكد معنى وحدة الأمة ويحدث في النفس أثرا حساسا يبعثها على الامتثال، فالطالب الذي يربى على هذه المعاني، وهذه الدقائق القرآنية، لاشك وأنها تؤثر فيه وتغرس فيه هذا الإحساس وهذا الشعور.

ومن تدبير هذا الأسلوب القرآني، علم أنه لا قوام لهذه الأمة إلا بمثل هذا الشعور، وهذا الإحساس، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين، ودمه دم الآخرين، وظن السوء بهم ظن بنفسه، والسلام عليهم سلام على نفسه، وعيبهم عيب لنفسه.

لا فرق في المحافظة على الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه، وبين الأرواح التي يحيا بها إخوانه:﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾، وقالﷺ:"مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"، وكل هذه المعاني، وإن كانت كامنة في القرآن الكريم، فإن التفسير يكشفها و يجليها .

إن الاشتغال بفهم القرآن والتفقه فيه قد يكون سببا للطمأنينة والسكينة، ويحصل لصاحبه عز الدنيا وسعادة الآخرة، كما أخبر بذلك المعلم الأول ﷺ:"وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده"[123].

وقد دلت التجارب العملية على ذلك، فهذا الرازي ينقل لنا تجاربه فيقول:"وأنا نقلت أنواعا من العلوم النقلية والعقلية، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم"[124]، يعني تفسير القرآن.

وقد نقل هذا النص رشيد رضا، ثم قال مبينا كلامه:"أي علم القرآن بتفسيره فليعتبر بهذا من يضيعون جل أوقاتهم في طلب العلوم الدينية بعلوم الكلام وغيرها، ويرجعوا إلى كتاب الله ويطلبون السعادة من فيضه دون غيره. ونسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى تفسيره"[125].

ونقل الشيخ الظاهر بن عاشور في تحريره[126]، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مباركا فاتبعوه ﴾[127].

وقد أدرك هذه السعادة الغامرة الإمام القرطبي، فعزم واستفرغ قوته، ورأى أن يشتغل بالتفسير مدى العمر -رحمه الله-[128].

وإن بعض العلماء الذين برزوا في الدعوة إلى الله وقاموا بنهضة شاملة وإصلاح عام، اعتمدوا في دعوتهم بعد الله على دروس التفسير، فأثمرت دعوتهم ونالت قبولا، وأقبل عليها الناس من جميع الأصناف والطبقات، وأحدثت دعوتهم تغييرا إصلاحيا في العقيدة والسلوك، وانتشرت في الشرق والغرب.

وإذا أردنا أن نتجول مع هذا الأثر الحميد فسنجد من بين هؤلاء المبرزين الشيخ عبدالرحمان بن ناصر السعدي (ت 1376هـ) قد اعتمدت في دعوته في نشر التوحيد والإصلاح في ربوع نجد على تفسير القرآن الكريم، فكان ذا عناية فائقة بالتفسير وفنونه ويرع فيه، فألف ثلاث كتب في التفسير وحده:تيسير الكلام المنان في تفسير كلام الرحمان، وتيسير اللطيف المنان في خلاصة القرآن، والقواعد الحسان لتفسير القرآن[129].

وإذا انتقلنا غربا إلى مصر، نجد الإمام محمد عبده يعتمد في دروسه على التفسير، فقد ألح عليه تلميذه رشيد رضا أن يلقي دروسا في التفسير، ويعلل لذلك بقوله: "إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء"[130]، ثم واصل بعده رشيد رضا إلى أن أجله حال دون إكمال التفسير رحم الله الجميع.

وإذا انتقلنا إلى تونس غربا، نجد الإمام الطاهر بن عاشور يتأثر بمدرسة رشيد رضا في التفسير، وألف تفسيرا كاملا سماه التحرير والتنوير، فحرر الناس من الجهل والظلمات، نور به البلاد التونسية، وإذا انتقلنا قليلا إلى الغرب في الجزائر، نجد الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس قد اقتصر على دعوته الإصلاحية الشاملة

ابتداء بتحقيق التوحيد وحقوقه إلى محاربة الاستعمار، فقد عكف على تفسير القرآن إلى أن ختمه في ثلاث وعشرين سنة على مدة التنزيل ولم يختم التفسير رواية ودراية في الجزائر غيره منذ أن ختمه أبو عبد الله الشريف التلمساني في المائة الثامنة، فتعلم الناس منه كل شيء[131].

وإذا عرجنا جنوبا إلى بلاد شنقيط، نجد الإمام محمد الأمين الشنقيطي يفسر القرآن بالقرآن ويسميه أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.

فهؤلاء الأئمة -رحمهم الله- كانوا مجاهدين بالقرآن بتفسيره وبيانه والتفقه فيه، وقد سمي القرآن ذلك بالجهاد الكبير، وقال:"وجاهدهم به جهادا كبيرا"، أي بالقرآن،كما ذكره ابن عباس، وفي هذا منقبة عظيمة لمن يدعوا إلى الله تعالى بالقرآن العظيم وتفسيره وتوضيحه للناس فهو مجاهد[132]، إقتداء بالمصطفى ﷺ حيث أمره الله أن ينذر قومه بالوحي:﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾[133]، وقال:﴿ وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾[134]، فكل من أنذر الناس بغير هذا الوحي فهو مخطئ.

من أهم ما يثمره تفسير القرآن والتفقه فيه في شخصية الطالب التخلص من التعصب والتقليد، بل إذا ابتدأ الطلب بعد حفظ القرآن بعلم تفسيره وبيانه كما رتبه الله في قوله:﴿ يتلوا عليهم آياته ويعلمهم الكتاب﴾ لم يجد هذا الهاجس إلى نفسه سبيلا وينتفي، وما وجد التعصب والتقليد غلا بمخالفة المنهج الذي رسمه القرآن في التعليم، وهو التلاوة والتفسير والحكمة والتزكية، كما جاء في قوله تعالى:﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ﴾[135].

فبمخالفتنا لمنهج التربية والتعليم، كما رسمه القرآن نعلم الطلاب التعصب والتقليد من حيث لا ندري، لذلك نجد كتب التفسير تختلف اختلافا كبيرا نظرا لكون أصحابها دخلوا باب التفسير بعد ما تشبعوا بأفكار ومذاهب ظهرت آثارها في تفسيرهم في حين أن الذي دخل إلى التفسير كما دخله الصحابة والتابعون ومن تبعهم واقتفى آثارهم، ظهرت آثار التفسير فيهم، فالسلف تأثروا بتفسير القرآن، وأثر التفسير فيهم، والخلف اثروا في التفسير، ولم يتأثروا به.

فظاهر التعصب والتقليد لا تمحي ولا تزول إلا بتفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه، لأن النظر في القرآن نفسه وفي ألفاظه بالذات يجعل الطالب يأخذ الحكم الذي عليه الآية دلالة قطعية أو الحكم الأقرب إلى نص الآية إن اختلف فيها أنظار العلماء في دروس التفسير والتفقه في القرآن يتعلم الطالب الاستقلال في الأخذ والترجيح، وعدم التبعية والتقليد.

ومما يدل على استقلال شخصية طالب علم التفسير والتفقه في القرآن ما لحظته عند ابن العربي، مع أنه كثيرا ما يتعصب لمذهبه مبينا الوجه والسبب، فقال عند قوله تعالى:﴿ وكلوا من ثمره إذا أثمر وءاتوا حقه يوم حصاده﴾[136].قال:"وقال أبو حنيفة تجب الزكاة في كل ما تنبته الأرض من المأكولات..." ثم تعرض لبقية المذاهب، وصرح بما يخالف مذهبه فقال:"وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق"[137]. قال القرطبي:"وأخذ يعضد مذهب الحنفي ويقويه"[138].

هذا هو حال من يطلب فقه القرآن لا فقه الفقه، وهكذا حال كل من يجعل القرآن مرآته، فإنه يبصر الحق كما أبصره الإمام أبو حنيفة، وابن العربي وغيرهم

رحم الله الجميع، ما أحوجنا اليوم إلى أن جعل القرآن مرآتنا لنبصر الحق والهدى والرشاد.

الطالب الذي يتعلم على هذا النمط في التفسير والتفقه في القرآن تكتسب شخصيته اتزانا واعتدالا وتكاملا، ولا ينحاز ويميل لأن المصدر الذي يتلقى منه علومه واحدا، فلا يطغى عليه جانب دون جانب، فهو عند آيات الأسماء والصفات يتعلم...أسماء الله وصفاته بدون تعطيل ولا تمثيل.

وإذا جاء إلى آيات الجهاد تعلم وتفقه في أحكام الجهاد، وإذا جاء إلى آيات الأحكام تعلم الفقه والأحكام الشرعية، وإذا مر على آيات الفرائض تعلم ذلك، ولا شك، وإذا مر على الآيات المتعلقة بالبر والإحسان تعلم ذلك وتطبع به، وعمل به، وإذا مر على الآيات التي يذكر فيها أخبار الأمم السابقة وأحوالهم وما آل إليه أمرهم اعتبر بذلك واتعظ، وتعلم قصص الأنبياء والرسل، وما لقوه في سبيل الدعوة إلى الله ﷻ وعلم طرق الدعوة ووسائلها وأهدافها.

وإذا مر على الآيات التي تدعو إلى التفكر والتأمل والاعتبار بمخلوقات الله الكونية، تعلم طرق التدبر والتفكر فتنمي فيه ملكة التفكير السليم،والنظر السديد، والتصور الصحيح، فينعكس ذلك على سلوكه، لأن سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه ويثمر بأثماره ويعقم بعقمه، وأفعاله ناشئة عن اعتقاداته وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات.

ومن جهة أخرى، فإن الطالب الذي يتفقه في القرآن يمر على جميع الآيات القرآنية فيتكامل الموضوع لديه، لأن موضوع الآيات ومقاصدها ليست منسوقة في موضع واحد، وليست الآيات في سياق واحد، فنجد أن الآية أو الآيات مفصولة

عن الأولى بجملة من الآيات، وهي في نفس الموضوع، وقد تكون ناسخة، وقد تكون منسوخة، وقد تكون بيانا وتفسيرا، وقد تكون قيدا وقد تكون إجابة عن شبهة.

والأمثلة على هذا النمط كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قل إنما أنا منذر﴾ الآية 65 في آخر سورة ص هي جواب لقول كفار قريش في صدر السورة:﴿وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾في الآية 4، وقوله ﷻ في آخر السورة:﴿وما من إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾ في الآية 66 من سورة ص، هي جواب لقولهم في صدر السورة: ﴿أجعل الآلهة إلها واحدا﴾ في الآية 5، وقوله ﷻ في آخر السورة: ﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون﴾ في الآية 68 من سورة ص هو جواب وتفنيد لقولهم في صدر السورة: ﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾ الآية 7 من سورة ص، هذا ما وقع في السورة الواحدة نفسها.

أما ما وقع الجواب عنه في غير السورة التي وردت فيها الشبهة فكثير، ومنه قوله تعالى:﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾ في الآية 6 من سورة القلم، وقوله تعالى:﴿ وما صاحبكم بمجنون﴾ في الآية 22 من سورة التكوير، فكل

هذه الآيات أجوبة تفند زعمهم الباطل كما حكاه القرآن في قوله تعالى:﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ في الآية 6 من سورة الحجر.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن القرآن كالسورة الواحدة، وحينئذ يتكامل الموضوع لدى الطالب ويؤثر في بنائه العلمي والنفسي... والله أعلم.

ومن أهم ما يثمره الاشتغال بالتفقه في القرآن وعلومه وتفسيره الوحدة بين جميع المسلمين وحدة في الإحساس والشعور، ووحدة في الوجدان والتفكير، ووحدة في السلوك والعمل. فتتقارب النفوس وتستقيم وتتخذ نوازعها ومشاربها وتصوراتها لصدورها عن أصل واحد ونبع واحد وهو التفقه في القرآن وعلومه، فيزدادون صلة وودا ومحبة.

ولذلك كان أهل القرون الفاضلة اخوة متماسكين، ولم يكن بينهم هذا التباعد وهذا الجفاء وهذا الانفصال الذي نراه اليوم بين طلبة العلم من جهة، وبينهم وبين أساتذتهم من جهة أخرى.

تفسير القرآن وفهمه يساهم مساهمة فعالة ترى آثارها بادية في بناء الشخصية السوية المعتدلة، لأن القرآن يتضمن علوما كثيرة ومنوعة ومكررة بمختلف الأساليب، وكل واحد منها يغذي جانبا من جوانب الشخصية مع المحافظة على التوازن والتكامل، لأن نظرة القرآن الكريم إلى الإنسان نظرة شاملة تغطي جميع مجالات حياة الإنسان.

ولما كانت الوسطية من مزايا هذه الأمة حث عليها الشرع وقررهـــا القـــرآن: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[139]، كان لتفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه أثر قـوي لا ينكر في تحقيق صفة اعتدال الشخصية واتزانها.

وقد تحدد دراسة العلوم الإسلامية المفصولة عن القرآن الكريم انفصالا في بعـض جوانب الشخصية، فقد يتعلق بعضهم بالفقه فقط، والأخر بـــالحديث، وبعضـــهم بالعقيدة، وكل هذه العلوم هي بعض مما تضمنه القرآن وهي جزء من التفسير.

وقد يكون الاقتصار عليها يؤدي بصاحبه إلى الميل والشطط والغلو والتعصـــب، وقد حصل شيء من هذا، وكل ما نراه من فروق وواضحة بين الطلبة يرجـــع إلى الاختلاف بينهم في تخصصات مفصولة من القرآن، وإن كانت تعتمد على القـوآن، فالفصل وحده كاف لإحداث هذا، ثم لا يستطيع الإنسان أن يجزم بأن هذه الآية في الأحكام، وهذه في العقيدة، وإذا كان أولها في الأحكام وآخرها في العقيدة مـــاذا يفعل؟.

ولذلك لم تنضبط آيات الأحكام عند العلماء[140]، وكان من الموفقين في ذلـــك الإمام القرطبي، سمى كتابه الجامع لأحكام القرآن، وفسر القرآن كله، ولم يســـتغن عن بعضه، ولم يستطع أن يسلخ منه هذه الأحكام، كما فعل أبو بكر الجصـــاص، وابن العربي، ثم الفصل وحده كاف لإسقاط بعض المعاني والربط وحـــده يتضمـــن أحكاما، قال الرازي:"إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابـــط"[141]، فالذي يقضي على مظاهر الانحراف والغلو والشذوذ هو الاشتغال بالقرآن فـــهما وتفسيرا وتفقها.

ومما يؤخذ على من يقتصر على موضوع واحد ومادة واحد أو تخصص واحدة أنه ينعزل وينغلق على ما حبس نفسه له، وانزوت شخصيته في دائرة ضيقة من علوم الإسلام، وبالتالي تنحصر علاقته بالأمة في أشخاص معدودين، وتقلصت مودته إلى العدد القليل من الناس، ولم تكن له مشاركة ولا مساهمة عفوية مع الآخرين، وبتر نفسه من جميع بقية فروع المعرفة وعلوم التنزيل التي حواها كتاب الله.

تفسير القرآن وفهمه والتفقه فيه يصل أصحابه بأصحاب التخصصات العلمية الأخرى، ويرتبط بجميع أصناف الناس وطبقاتهم، ويطمئنون للأخذ عنه والاستماع إليه، لأنه لا يعلم فنا معينا بعينه، ويستطيع أن ينشر عقيدة التوحيد على أوسع نطاق من خلال دروس التفسير.

انفصال المواد الدراسية على إطلاقه ليس من طبيعة هذا الدين، ولا من شأن عمل السلف الصالح، فإنهم كانوا يأخذون بالقرآن كلا لا يتجزأ، فلا بد من ربط كل هذه العلوم، وهذه المواد الدراسية بالقرآن الكريم، ولا يحقق هذه الغاية إلا تفسير القرآن والتفقه فيه دون سواه، فهو وحده الكفيل بتحقيق شمولية التربية والتعليم من جميع النواحي، ولم يكن للصحابة-رضوان الله عليهم-، كتاب يدرسونه، وكلام محفوظ يتفقهون فيه إلا القرآن وما سمعوه من نبيهم ﷺ، ولم يكونوا إذا جلسوا يتذاكرون إلا في ذلك.

فخلف من بعدهم خلف قوم يقرأن القرآن ولا يفهمونه، وآخرون يتفقهون في كلام غيرهم ويدرسونه، وآخرون يشتغلون في علوم أخرى وصنعة اصطلاحية[142].

قال الشيخ عبد الرحمن النحلاوي:"فانفصال المواد الدراسية ليس من طبيعة الثقافة الإسلامية، ولا من شأن التربية الإسلامية التي تأخذ الإسلام كلا لا يتجزأ،

وتعتبر كل العلوم التي انبثقت عنه وما تزال وظيفتها توضيح الشريعة الإسلامية والحفاظ عليها، فلا بد من ربط كل هذه العلوم بهدف التربية الإسلامية"[143].

إن فصل المواد الدراسية من القرآن والسنة بمرور الزمن قد ينسى ربطها به، ويتقرر في أذهان الناس استقلالها، وحينئذ يدخلها اجتهادهم واستحسانهم بالتغيير والتبديل والإضافة، ومن السمات البارزة عند بعض أهل الفرق أنهم لا يفسرون القرآن كله، ولا يتتبعونه آية أية، لأنهم إن فعلوا يصطدمون بالآيات المحكمات التي تناقض مذهبهم وهواهم، فيسلكون مسلك الانتقاء والاختيار، ومن فسر القرآن كله منهم كالزمخشري من المعتزلة والطبرسي من الشيعة وغيرهم، فإنهم يوجهون الآيات التي تصادم مذهبهم بالتأويل ويسلكون في سبيل ذلك كل مسلك انتصارا لمعتقداتهم، فهم من باب قول الحق تبارك وتعالى:﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء﴾[144].

قرأ الجمهور:"رقوا دينهم" من التفريق، وهو الفصل بين أجزاء الشيء الواحد، وجعله فرقا وأبعاضا، وقرأ حمزة والكسائي (فارقوا) من المفارقة للشيء وهي تركه والانفصال منه، وهي تفيد أن تفريق الدين قد يستلزم مفارقته لأنه واحد لا يتجزأ، ومن التفريق الإيمان ببعض الكتاب دون بعض ولو بالتأويل وترك العمل[145]، والدين لا يتجزأ، وقد قال الله تعالى:﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾[146]، وقال:﴿كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾[147].

وقال:﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴾[148].

قال محمد حسين الذهبي:"إن الباطنية لا يفسرون القرآن كله لأنهم يصدمون بآيات محكمات ترد مذهبهم"[149]، وقال في بيان موقف الخوارج من التفسير:"لا يأخذون من القرآن إلا بقدر ما ينصر مبادئهم ويدعو إليها، وما رأوه يصادم مذهبهم حاولوا التخلص منه بصرفه وتأويله"[150].

وقد لجأ بعضهم إلى المتشابه لغرض نصرة المذهب الفاسد، كما نص على ذلك القرآن المجيد فقال:﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله﴾[151].

أهل الزيغ والضلال يفزعون إلى المتشابه الذي بواسطته يمكنهم أن يلبسوا به، ويصرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها[152].وما دخلت البدع في دين الله إلا بسبب التعلق ببعض الآيات وإهمال الآيات الأخرى أو سوء فهم لها.

فالمعتزلة تعلقوا بقوله تعالى:﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[153]، وأثبتوا حرية الإنسان، وقالوا إنه خالق لأفعاله، ونفوا صفة الكلام لله رب العالمين، وتعلقوا بقراءة شاذة:﴿ وكلم الله موسى تكليما﴾[154]، فجعلوا موسى هو الفاعل المتكلم، وأغمضوا أعينهم عن القراءة المجمع عليها:﴿ وكلمه ربه﴾[155].

ويقابلهم الجبرية فتعلقوا بقوله:﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾[156]، ونفوا نسبة الأفعال إلى من صدرت عنه، وقالوا: "الإنسان مجبور وعطلوا الأمر والنهي"، والكرامية لم ينظروا في باب الإيمان إلا في قوله تعالى:﴿ فأثابهم الله بما قالوا﴾[157]، وقالوا:"الإيمان قول باللسان دون تصديق ولا عمل".

قال القرطبي:"وهذا منهم قصور وجمود وترك نظر لما نطق به القرآن والسنة"[158].

وهذا حال من تعلق ببعض الكتاب دون بعض، وهو انحراف خطير في الفكر وشذوذ في التفكير واعتلال في الشخصية أوجبه الاقتصار على بعض الآيات دون البعض.

قال رشيد رضا:"وفهم القرآن لا يكون صحيحا إلا بالجمع بين الآيات المتقابلة في الموضوع الواحد الذي يختلف التعبير فيه"[159].

وإزاء هذا وذاك، وفق الله المنتسبين لأهل الجماعة في تفسير القرآن بالشمولية والاستيعاب لجميع الآيات القرآنية كلها، ولا يقتصرون على بعضها للاستفادة منها، ومن ثم لم يكن عندهم هذا الشطط وهذا الانحراف وهذا الشذوذ.

فالتفسير وفهم القرآن وحده هو الذي يقضي على ظاهرة التفرق والتحزب والانتماء إلى فكر معين وتخصص معين، فمدرسة التفسير تذوب فيها جميع الفوارق، فإن سفينة التفسير تجري على اليبس.

فإني أتصور الطالب وأتخيله بعبد يملكه شركاء مختلفون وهو بينهم موزع، ولكل منهم فيه توجيه، وعليه تكليف، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج، ولا يستقيم

على طريق، ولا يملك أن يرضي أوامرهم المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه، وهذا واضح جلي في طلاب الجامعات التي لا تلتزم بشرع الله.

وأتصوره وأتخيله بعبد يملكه سيد واحد، وهو يعلم ما يطلب منه ويكلفه به وهو مسترح مطمئن مستقر على منهج واحد، وهذا واضح جلي في طلاب الجامعات التي تلتزم بمنهج القرآن الكريم.

ولا شك أن الذي يتلقى علومه وفقهه من القرآن الكريم ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتفسير يخضع لهذه المادة ويتعلم منها فتربطه بالقرآن فينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق، فينشأ سوي الشخصية متزنا معتدلا.

والذي يتعلم هذه العلوم منفصلة عن القرآن، ومن أشخاص مختلفين، فإنه يتأثر بذلك لأن كل أستاذ يلقنه غير الذي يلقنه الآخر، وكل منهم يريده أن يكون على طريقته ومنهجه، فينعكس ذلك على شخصيته ويشتت ذهنه، وربما يحدث فيه شذوذا عن الجادة، لذا يتأكد على رجال التربية والتعليم أن يكفوا من مقررات التفسير.

لم أرى علاجا أنفع لهذه الأمة كفهم القرآن وبيانه وتفسيره، وإن الأمة اليوم تحفظ القرآن وترده صباحا ومساء، ولكن لا تفهمه، بينه وبينهم غيوم كثيفة وحجب وعوائق، ومن أهمها وأشدها كثافة ضعفهم في علوم اللغة العربية التي نزل بها القرآن، كيف ندعوا الناس إلى الهداية والرشد، وهم لا يفهمونها ولا يفهمون مصدرها، ولو فهموا ما فيه من الأحكام والحكم وما فيه من الأسرار واللطائف لتملكهم القرآن وجرهم إليهم جرا كما جر بعض كفار قريش إلى الاستماع إليه في

الليالي المظلمة، وكانوا يدفعون تأثيراته باللغو ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ فكانوا مغلوبين.

المطلوب منا أن نفسر القرآن ونوضحه ونبينه فقط، وفي ضمنه نتعلم الحكام والحكم والفقه والعقائد والخلاق وكل شيء مما يحتاجه الإنسان لسعادته في الدنيا والآخرة.

بيان القرآن وفهمه هو الكفيل - بإذن الله - لهداية هذه الأمم الضالة، وجميع أصناف الناس على مختلف مشاربهم يجدون في علم التفسير ما يروي الضمأ وما يشبع الرغبة، وما يعدل السلوك، وما ينظم الغرائز والدوافع ويقوي الإيمان ويصحح الاتجاه.

الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها الأستاذ أن يبلغ بها شرع الله كاملا غير منقوص، هو علم التفسير فليمتط من أراد الرشد سفينة التفسير إن سفينته تجري على اليبس.

المصادر والمراجع

1- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ط مكتبة دار التراث، القاهرة.

2- آثار عبد الحميد بن باديس، منشورات وزارة الشؤون الدينية بالجزائر، قسنطينة.

3- أحكام القرآن الكريم لأبي بكر محمد بن العربي، ط، دار الكتاب، بيروت، لبنان.

4- بدائع التفسير لابن قيم الجوزية جمع يسري محمد، ط، دار المعرفة، بيروت.

5- تفسير القرآن العظيم للإمام عماد الدين إسماعيل بن كثير، دار المعرفة، بيروت.

6- التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي، ط، مكتبة وهبة، القاهرة.

7- التفسير الكبير للإمام محمد الرازي فخر الدين، ط، المكتبة التجارية، بيروت.

8- تفسير التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور، ط، الدار التونسية، تونس.

9- تفسير المنار للإمام محمد رشيد رضا، ط، دار المعرفة، بيروت.
10- تفسير عبد الحميد بن باديس، ط، منشورات المعارف، وهران، الجزائر.
11- جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام أبي جعفر الطبري، ط، المعارف، القاهرة.
12- الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله القرطبي، ط، دار الكتاب، بيروت.
13- شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ط، مكتبة المعارف، الرياض.
14- الصواعق المرسلة لمحمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار العاصمة، الرياض.
15- غاية المريد في علم التجويد لعطية قابل نصر، ط، مكتبة الحرمين، الرياض.
16- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني، ط، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
17- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ط، المكتبة السلفية، القاهرة.
18- المكتفي في الوقف والابتداء للإمام أبي عمر والداني، ط، مؤسسة الرسالة، سوريا.
19- معارج القبول بشر سلم الوصول للشيخ حافظ حكمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
20- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الزرقاني، ط، دار الكتب العلمية، بيروت.
21- النشر في القراءات العشر للحافظ ابن الجزري، ط، دار الفكر، بيروت.

الهوامش

1- سورة البقرة. الآية 151.
2- سورة آل عمران. الآية. 164. ومثل هذه الآية الثالثة في سورة الجمعة.
3- سورة البقرة . الآية 129
4- تفسير ابن كثير 197/1، القرطبي : 164/1.
5- سورة الجمعة. الآية 2-3 .
6- الجامع للقرطبي. 83/9
7- سورة البقرة. الآية 130.
8- سورة البقرة. الآية 251.
9- سورة الكهف. الآية 66.
10- سورة الشورى. الآية 52.
11- سورة العنكبوت. الآية 48.

12- سورة الأعراف. الآية 157.

13- سورة النساء. الآية 113.

14- سورة طـــه. الآية 114.

15- سورة العلق. الآية 1-5.

16- سورة الشمس. الآية 2.

17- سورة النمل. الآية91-92.

18- سورة يونس. الآية 12.

19- صحيح البخاري. الآية 162/7.

20- سورة الزمر. الآية 23.

21- سورة طـــه. الآية 114.

22- سورة القيامة. الآية 16-19.

23- سورة الأعلى، الآية 6-7.

24- سورة النجم، الآية 4-5.

25- فتح الباري. 23/9، المختصر. 183/1.

26- تفسير ابن كثير. 185/2

27- سورة القيامة. الآية 16-19

28- سورة طه. الآية 114.

29- انظر: بدائع الصنائع. 82/5.

30- سورة الأعلى. الآية 6-7.

31- سورة النمل. الآية 6 .

32- ســـنن القراءة. ص45.

33- سورة الشورى.الآية 51.

34- سورة النجم. الآية 4-6.

35- سورة النساء. الآية 113.

36- سورة الفرقان. الآية 33.

37- فتح الباري. 30/1.

38- سورة الأعراف. الآية 203.

39- سورة ق. الآية 37

40- غريب القرآن. ص.419. بدائع التفسير. 191/4.

41- المفردات. ص.271.

42- الجامع للقرطبي. 92/2.

43- سورة المزمل. الآية 4.

44- سورة الإسراء. الآية 106.

45- تفسير ابن كثير. 459/4. الجامع للقرطبي. 96/6.

46- تفسير ابن كثير. 459/4.

47- رواه الترميذي في أبواب التفسير.

48- سورة التوبة. الآية 60.

49- الاتقان، 9/1.

50- فتح الباري. 23/9.

51- غاية المريد. ص.112. تفسير ابن كثير. 459/4.

52- النشر. 240/1. المكتفي. ص.130.

53- سورة الجمعة. الآية2.

54- سورة الجمعة. الآية2.

55- سورة الجمعة. الآية2.

56- الإتقان. 385/2.

57- سورة الأنعام. الآية 82.

58- تفسير ابن كثير. 170/2. التفسير والمفسرون. 50/1.

59- سورة النحل. الآية. 44.

60- سورة النور. الآية 54.

61- التفسير الكبير. 103/2-253.

62- الصواعق المرسلة. ص.441.

63- تفسير الطبري. 35/1. الإتقان 2.

64- تفسير ابن كثير. 394/3. بدائع التفسير. 292/3.

65- الجامع القرطبي. 30/1. فتح القدير 14/1.

66- الجامع القرطبي. 14/1.

67- معارج القبول. 57/1.

68- شرح الطحاوية. 41.

69- الإتقان. 62/1. مناهل العرفان. 110/1.

70- آثار عبد الحميد. 75/4.

71- الجامع. 83/9.

72- سورة العلق. الآية 1-5.

73- بدائع الصنائع. 283/5.

74- الجامع للقرطبي. 107/10.

75- سورة النساء، الآية 113.

76- سورة البقرة. الآية. 231.

77- سورة الأحزاب، الآية 34.

78- سورة الإسراء، الآية 39.

79- سورة الإسراء، الآية 22.

80- سورة الإسراء، الآية 39.

81- سورة النجم، من الآية 3-5.

82- سورة البقرة، الآية 269.

83- الإتقان.385/2. فتح القدير.291/1.

84- سورة لقمان. الآية 12.

85- سورة ص. الآية 20

86- تفسير ابن كثير. 33/3

87- سورة الأنبياء. الآية75.

88- الجامع القرطبي. 124/1.

89- سورة الجمعة. الآية2.

90- سورة الجمعة، الآية2.

91- سورة الأعلى، الآية 14-15.

92- سورة الشمس، الآية 9-10.

93- التحرير والتنوير 282/30.

94- المصنف 416/10، الصواعق 443.

95- جامع البيان. 35/1.

96- سورة الأنعام.الآية 155.

97- تفسير ابن كثير35/4.

98- سورة البقرة. الآية 121.

99- تفسير ابن كثير175/1، الطبري 567/1.

100- تفسير ابن كثير. 465/4. القرطبي. 210/9.

101- سورة الجمعة. الآية5.

102- سورة البقرة. الآية 130.

103- سورة البقرة. الآية85.

104- الجامع للقرطبي. 19/2.

105- التحرير والتنوير. 585/1.

106- سورة البقرة الآية 54.

107- الجامع للقرطبي. 376/1.

108- سورة النساء. الآية 29.

109- الجامع للقرطبي 136/3.

110- تفسير ابن كثير. 534/1.

111- التحرير والتنوير. 376/18.

112- تفسير ابن كثير. 129/1.

113- سورة المائدة.الآية 32.

114- سورة المائدة.الآية105.

115- تفسير الرازي. 118/6

116- سورة النور. الآية 61.

117- التحرير والتنوير. 376/18.

118- تفسير ابن كثير. 336/3.

119- سورة الحجرات. الآية11.

120- سورة النور. الآية 12

121- الجامع للقرطبي. 186/6.

122- نفسير الرازي. 186/178.

123- رواه مسلم، رياض الصالحين، 333.

124- تفسير الرازي، 85/7.

125- تفسير المنار. 370/7.

126- التحرير والتنوير. 370/7.

127- سورة الأنعام الآية 55.

128- الجامع. 14/1.

129- مقدمة تفسير السعدي. ص.3.

130- تفسير المنار. 12/1.

131- تفسير ابن باديس. ص.33.

132- الجامع للقرطبي.56/7.

133- سورة الأنبياء. الآية 45.

134- سورة الأنعام. الآية 19.

135- سورة البقرة. الآية 126.

136- سورة الأنعام. الآية146.

137- أحكام القرآن لابن العربي 759/2.

138- الجامع للقرطبي. 96/4.

139- سورة البقرة. الآية 143.

140- الإتقان. 280/2.

141- تفسير الرازي. 146/5.

142- انظر: الصواعق المرسلة. ص. 444.

143- الإسلامية. ص.256.

144- سورة الأنعام. الآية 159.

145- انظر: المنار. 214/7.

146- سورة البقرة، الآية 85.

147- سورة الحجر، الآية 90-91.

148- سورة النساء، الآية 150.

149- التفسير والمفسرون 260/2.

150- التفسير والمفسرون 35/2.

151- سورة آل عمران، الآية 7.

152- تفسير ابن كثير 370/1.

153- سورة الكهف، الآية 29.

154- سورة النساء، الآية 164.

155- سورة الأعراف، الآية 143.

156- سورة الإنسان، الآية 30.

157- سورة المائدة، الآية 85.

158- الجامع للقرطبي 188/1.

159- المنار لرشيد رضا 132/9.